قصة

النّادلةُ سعاد

الكاتب

جمال بن عبد الله الحيان

الترقيم الدولي :

ISBN :   978-9920-39-684-4

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخل والصديق

مقدمة

منذ سنين طويلة ، وأنا أقبع في ظل تبكيت الضمير ، وقد أحاطت بي رقصات الموت ، وعلى وجهي أمارات ذعر وحزن يستدر الرثاء .

زفرت وقلت : الجوع لا يفقه شيئا اسمه المذاق ، الجوع سيف حاد ، لا ضمير له ولا أخلاق .

لوهلة تذكرت ما كانت تقوله والدتي : يا بني ...إن الوحدة أفظع من الفقر ...

زفرت من جديد زفرة حقد عميقة مغمغما وأنا أرتعد : الفقر إذلال للروح ، علتنا الفقر ، الفقر هو التعاسة ...

لقد كنت أعتقد طوال حياتي أنني سأعيش هكذا تحت رحمة السآمة والتناقض ، لقد كان الأمر لا مناص منه ، كنت مسرورا في وقت من الأوقات ، ولكنني لا زلت أتذكر كم بكيت وأنا أستقل الحافلة رقم 21 ، كنت حاد الشعور ، رقيق القلب ، توشك روحي أن تنفجر وأنا أكتب هذا ، لقد

كانــــت أشـــياء أتـــذكرها كلمـــا أحسســـت بالســـعادة ، فأخيـــب وقتئذ، وأفسد عليّ مهجتي تلك .

إنـــه لمـــن الشّـــائق أن نشـــارك مـــا نحـــسّ بـــه مـــع مـــن يحســـون بنـــا، وأنـــا الآن قـــابع فـــي ركنـــي أفكـــر فـــي لـــون حـــزين منفـــر أصـــبغ بـــه شـــعري ، كـــي أصـــبح وســـيم الطلعـــة بمفهـــوم موضـــتنا اليوم .

لقـــد ســـرت فـــي جســـمي الآن رعـــدة عصـــبية ، فلبـــث أنتظـــر لهنيهـــة متـــى ســـتكف عـــن إزعـــاجي وتشويشـــي ، لقـــد شـــعرت براحـــة واطمئنـــان وأنـــا أشـــارككم هلوســـاتي ، ماشـــيا علـــى أقدامي الحافية غير مبالٍ للعواقب .

النادلة سعاد

إزدحمت في ذهني أفكار كثيرة ونحن جلوس بمقهى" أم كلثوم"، بعد يوم من الأشغال الشاقة المضنية ، فالجو مساءا مختلف تماما عن الصباح ، مقهى تأثر صاحبه بأيقونة الطرب آنذاك ، فلا ترى في المقهى سوى مقاعد خشبية قديمة ، وكراسي من الطراز العتيق ، وأوان خزفية يرجع تاريخ صنعها لسبعينيات القرن الماضي ، ووجوه شاحبة وسحب من الدخان ، وجرائد تقلب صفحاتها في كل مكان ، لا مكان للهواتف الذكية عند جيل يطرب نفسه بالحنين للماضي ، وأغنية أم كلثوم ترج المكان ، وقد حملت في طياتها رائعة لنزار قباني :

أصبح عندي الآن بندقية

إلى فلسطين خذوني معكم

إلى ربىً حزينة ....

بصوت واضح متميز ، ناديت على النادلة سعاد ...

_أي خدمة سيدي كمال ...!!

_قهوة سوداء كما العادة ، مع قطعة سكر صغيرة ، وكأس ماء بارد من فضلك .

_على الفور سيدي كمال .

ساورني شيء من الدهش والإرتباك لهنيهة ، وأنا أحس بشيء غريب في المقهى ، إلتفت خلسة أراقب وجوه الزبائن بنظرة سريعة ، وإذا بي ألمح غياب ستائر القماش التي كانت تغطي النوافذ من الجهة الشرقية للمقهى ، ظننت لوهلة أن الأمر مجرد روتين نظافة ...!!

وضعت على الطاولة سجائري مع مفاتيح السيارة ، وبيدي ولاعتي العتيقة المصنوعة من الفضة ، أداعبها بين أناملي .

أتـــت ســـعاد تحمـــل أخبـــارا جديـــدة ، فقـــد لاحظـــت أن بهـــا ظمـــأ لا يطـــاق ، وســـرا لا تقـــدر علـــى كتمانـــه ...هـــي العيـــون تحكـــي الخبايا ...

وضـــعت الطلبيـــة ، وانحنـــت تقـــول بصـــوت مثيـــر : ألـــن تخضـــع لي ولو مرة يا ذا اللحية الشائبة ...!!!

أحسســـت بالإشـــمئزاز الـــذي لا نهايـــة لـــه ، بعـــد أن بـــدأت أحـــس بشيء من التخفف والراحة .

_بمعنى ماذا ، أستاذة سعاد ...!!

_أرملة صديقك مصطفى تريدك ...!!!

غمزتني سعاد وانصرفت ...؟؟

لـــيس غريبـــا علـــي أن أرى زرافـــات مـــن العـــروض تنهـــال علـــي وأنا من أنا ، ولكني شريف ابن شريف .

تـــوفي صـــديقي مصـــطفى منـــذ أعـــوام ، وقـــد أخـــذت علـــى عـــاتقي رعاية أبنائه والإنفاق عليهم ، أرملة وابنين ...

وهـو علـى فـراش المـوت يوصـيني ، وأنـا علـى العهـد بـاق إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا .

هـي القلـوب الكسـيرة ، والأفئـدة الحزينـة ، تترقـرق مـدامعها علـى فلـذات أكبادهـا ، وآلام النـزع وشـدائده تشـد بكـل قـوة ، ومن ذا الذي يعترض سهم المنية القاتل .

إلا أن شـيئا كـان يجـذبها لمعرفـة سـبب إعراضـي عنهـا ، لقـد أرهقتنـي الأمانـة ، وهـدتني كلمـة الوعـد لصـديقي مصـطفى ، ولـن تغنينـي الشـهوة عـن نبـل المقصـد ، أمسـح علـى رأس اليتيمـين ، وأسـلم علـى الأخـرى مـن نافـذة السـيارة ، حـين تتجمد مشاعري ، حبا في مصطفى وإيمانا بالصداقة .

كنـت أظهـر قلقـا شـديدا فـي كـل أخـذ ورد فـي الكـلام معهـا ، فمظهـري البسـيط المتواضـع ، يـتكلم بكـل وضـوح وطلاقـة ، أن لا مكـان للغـدر فيـه ، فنبـل العواطـف الفطريـة ينبـذ طعـم الخيانة ، وأنا أتثاءب في كسل كوني غير مكترث لها أبدا .

أجلـس فـي المقهـى منزويـا بعـض الإنـزواء ، وأنـا أتحسـس في جنباته الحياة الغابرة والشوق .

يبطـؤ تـدفق كلامـي وأنـا أستنشـق دخـان الحشـيش المنبعـث مـن الـداخل ، وأنـا أعلـم سـلفا علـى وجـه اليقـين أنـي سأتعرض لذلك ، ولكني أريده ...أحتاجه .

وجـوه تعبـر عـن غايـة الحـزن والكـرب ، فبـأبلغ دلالـة وأصـدق تعبيـر ، أشـارك صـديقي التهـامي كـل شـيء ، وهـو بـدوره يفـرغ علـي همومـه بكـل اطمئنـان وثقـة ، فهـو الرجـل الـذي تفـيض نفسـه سـماحة ، نجتمـع معـا كـل مسـاء نتبـادل أدوار الحديث ، فكل خبئ مآله الظهور ذات يوم .

لقـد راودتـه الرغبـة فـي تغييـر ديكـور المقهـى ، لمـا رآه مـن تهافـت علـى المقـاهي العصـرية ، ولكـن فكرتـه التـي تشـبث بهـا منـذ أربعـين سـنة بـدأت بالإضـمحلال ، مـع تـولي ابنـه هيثم تسيير شؤون المقهى .

حاولـت إقناعـه بـأن المكـان تحفـة تاريخيـة ، ولكـن صـديقي شديد الكبرياء ، صعب المراس .

نهـض الحـاج التهـامي وقـد أعمـاه الغضـب مـن رفـض الزبـائن لفكرتـه ، وإصـرار ابنـه علـى ذلـك ، جلسـت أقـرأ الجريـدة

اليوميـــــة ، أتفحـــــص عناوينهـــا الهوليوديـــــة ، وفجـــأة لمحـــــت النادلـــة ســعاد وقــد بلغــت مــن البــؤس والهــول مــا لا أقــدر علــى وصفه ، ناديتها بحنو وقمة فضول :

_أين اختفى نشاطك يا أستاذة ...!!

أجابــت وقـــد بـــدأت تنتحــب باكيـــة ، عاقفـــة علـــى يـــديها مـــن الحسرة والحزن :

_ لقد انتهيت سيدي كمال ...انتهيت .!!!

أجبتها وأنا أضحك :

_كيف انتهيت ... لم أفهم !!!

أجابت وقد قطبت حاجبيها :

_ابــن الحـــاج يريـــد بنـــات العشـــرين ، وأنـــا لســـت ســـوى هزيلـــة قد دقيت باب الأربعين .

توجهت لها بسؤال بسيط بصفة شخصية :

_وما الذي سيحدث إن فصلت من العمل ، هل هي نهاية العالم ...!!!

قالت وهي تنتحب :

_وهل تستطيع فتاة فقيرة ان تعيش شريفة ...!!!

قلت :

_نعم ، هناك يصنع الشرفاء ، وهناك تصنع الأجيال .

تناولت وشاحها وبرنسها وخرجت متجهة بوجهها نحو الحائط .

ثم ها هو ذا يثور قائلا:

_ألا زلت في المقهى ...انصرفي ...؟؟

ابن الحاج السليط ، كرهته ولكني سأساعد سعاد بطريقة مبتكرة ، جمعت بين الإنتقام وتحقيق العدالة .

سعاد التي تسكن في حجرة واحدة بإحدى الدور بكاريان سيد الخضير ، شمع في كل ركن من أركان الحجرة ، يذوب وقد ذابت هي دموعا .

لقد اضطربت أشد الإضطراب ، وقد ضج المقهى بالصخب، وكلهم طمع في النادلة الجديدة ، خرجت مسرعا نحو سيارتي المرسديس 250 متجها نحو بيت سعاد ، ومخافة أن أرى من سكان الحي فأصير زنديقا يتصيد الفرائس ، انتظرتها لساعتين تقريبا ، بقرب بقال الحي ، راقدا على الأرض كالبهيمة .

لم تكن تملك أي شيء ، قدمت لها شيكا متواضعا ، وطلبت منها بطاقتها الوطنية ، واتصلت بابني في مفتشية الشغل .

لقد عملت لعشرين سنة في مقهى قد امتصت فيه عيون الزبائن تلك اللؤلؤة المدمنة ، إلى أن انقادت لميلها الطائش ، بعد أن كانت احسن رونقا وألطف جمالا .

خاطبتني قائلة :

_شكرا على كل شيء ...أشكرك من أعماق قلبي .

كانــت تفكــر بالطريقــة التــي ســتدبر بهــا الأمــور ، وقــد هيــأت لهــا نوعــا مــن الســكينة والطمأنينــة ، وجنبتهــا مطبــات السقوط في وهدة العار .

لــم أتــذكر كــم كــان المبلــغ الــذي اعطيتــه لهــا ، علــى أن تعتنــي بنفســها ، لأن ظمأهــا علــى مــا يظهــر لــي ، لــيس إلــى فــرح ، بل إلى حزن ودموع ...

سوف نبكي ...

وسوف نكتشف كل شيء ...

حين يفوت الأوان ...

سنبكي في آن واحد ...

وسوف ندرك كل شيء .

انهــارت قوا هــا فجــأة ، وتهــاوت فــوق قنينــات الغــاز ، امــرأة نحيلــة ، طويلــة القامــة حســنة الهيئــة ، بردائهــا العتيــق مــن صــوف خفيــف ، ســقطت وقــد ســاد الصــمت خــلال دقيقــة ،

وتلتهـا دقيقــة ، فصــارت دقــائق ، وتلــك الأنفــاس الضــعيفة قــد انقطعت .

وأخيرا ...

رحلت وودعت ...

وأشعرت بنهاية بؤس قد انتهى للتو ...

أرى وجههــا الهزيــل المرتـــاع ، يـــذبل ويميـــل للإصـــفرار ، وعـــدد مـــن المســـتطلعين يمـــدون رؤوســـهم الوقحـــة الضـــحكة لرؤية ماذا جرى ...؟؟

رجعـــت القهقـــرى ، وانصـــرفت لحـــالي ، يائســـا ، كارهـــا ، غاضـــبا ، علـــى هـــذه الحيـــاة ، وهـــذا البـــؤس ، أصـــبحت متسخطا ، لم يهنأ لي بال...

تركتهم منشغلين بابنة حيهم ، فلا أريد أن يراني أحد ...

فبعـد اسـتراحة فـي البيـت ، وبعـد نـوم مضـطرب لـم يجلـب لـي أيـة راحـة ، نهضـت إلـى شـرفة الشـقة ، أنظـر إلـى المقهـى نظـرة كـره ومقـت ، وقـد غطيـت جدرانـه الداخليـة بلوحـات

وديكــــورات عصــــرية باهضـــــة الـــثمن ، وقـــد قُبّـــر صــــوت أم كلثوم وقبله صوت سعاد .

انتهى بفضل الله وكرمه يوم : الاثنين 16 شوّال 1441هـ الموافق لـ 8 يونيو 2020 م.